

بسم الله الرحمن الرحيم
المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير
سورة القمر من الآية ٥٠ إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر رحمة الله تعالى:- قوله: **{وَمَا أَمْرَنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلْمَحَ بِالْبَصَرِ}** [سورة القمر: ٥٠] وهو إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم، فقال: **{وَمَا أَمْرَنَا إِلَّا وَاحِدَةً}** أي: إنما أمر بالشيء مرة واحدة، لاحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجوداً كلمح البصر، لا يتاخر طرفة عين.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:
قوله -تبارك وتعالى:- **{وَمَا أَمْرَنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلْمَحَ بِالْبَصَرِ}** يحتمل أن يكون المراد بذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: "أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا يحتاج إلى تأكيد بثانية"، يعني: **{إِنَّمَا قَوْنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** [سورة النحل: ٤٠]، وهذا يدل على كمال قدرته -تبارك وتعالى- ويحتمل أن يكون المراد بذلك معنى أخص من هذا، وهو الساعة، فإن الساعة تأتي بعنة **{لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً}** [سورة الأعراف: ١٨٧]، وقد ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك بقوله: ((تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة مما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم، والرجلان يتبايعان الثوب بما يتبايعانه حتى تقوم، والرجل يلطم في حوضه مما يصدر حتى تقوم))^(١)، وهكذا في أشياء ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم-، فأمر الساعة ووقوعها شيء مبالغت سريع في غاية السرعة، وهذا القول داخل ضمن القول الأول، والقول الأول أشمل، وقد دل على كل واحد منها القرآن، فدل على الأول قوله تعالى: **{إِنَّمَا قَوْنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** في غاية السرعة، وكذلك أيضاً أمر الساعة فإنه يقع سريعاً وهو من جمله أمره -تبارك وتعالى:- **{كَلْمَحَ بِالْبَصَرِ}** والمقصود باللمح بالبصر هو النظرة الخاطفة التي لا يسترسل صاحبها في النظر فيها، تقول لمحات، حصلت لمحات: نظرة سريعة.

وقوله: **{وَلَقَدْ أَهْلَكَنَا أَشْيَاكُمْ}** يعني: أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسل.
الأشياء يمكن أن تفسر بهذا باعتبار السياق **{وَلَقَدْ أَهْلَكَنَا أَشْيَاكُمْ}** باعتبار أن السابقين من الأمم المكذبة ليسوا أعوااناً لهؤلاء ولا علاقة بينهم وبين هذه الأمور الأخرى، **{وَلَقَدْ أَهْلَكَنَا أَشْيَاكُمْ}** وإن الأشياع يطلقون على الأتباع والأعونان، لكن هؤلاء لم يكونوا من أتباعهم ولا من أعواائهم، وإن كان فسره بعض أهل العلم بهذا، يعني بعضهم قال: **{وَلَقَدْ أَهْلَكَنَا أَشْيَاكُمْ}** أي: أعواهم وأتبعهم، وهذا لا يخلو من بُعد؛ لأن الذي هلك إنما هم أمثالهم وأشباههم مما قص الله -عز وجل- خبرهم، وأما الأتباع فلم يحصل لهم هذا، والخطاب

١- رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، برقم (٢٩٥٤).

لجميع هؤلاء المكذبين الذين نزل القرآن مخاطباً لهم، ومن قال: إن المقصود الأتباع يمكن أن يحمل ذلك على أن هذا الكلام متوجه لأولئك الذين أهلكوا، لكنه لا يخلو من بعد.

{فَهُلْ مِنْ مُذَكَّرٍ} أي: فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك، وقدر لهم من العذاب، كما قال: **{وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فَعَلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلِهِ}** [سورة سباء: ٥٤].

وقوله: **{وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ}** أي: مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة -عليهم السلام- **{وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ}** الزبر يعني الكتب، ويحتمل أن يكون المراد بذلك اللوح المحفوظ باعتبار أن الله عز وجل - كتب فيه مقدير كل شيء إلى قيام الساعة، ويقول الله عز وجل -: **{كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}** [سورة الإسراء: ٥٨] يعني: مكتوباً، ويحتمل أن يكون ذلك في الكتب التي بأيدي الملائكة، والمقصود بها كتب الأعمال التي يعملها العبد، **{مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ حَتَّىٰ}** [سورة ق: ١٨]، **{وَيَقُولُونَ يَا وَيَلْتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا}** [سورة الكهف: ٤٩]، فيكتب عليهم هذه الأعمال، ثم بعد ذلك يوم القيمة يجدون هذه الكتب فأخذ كتابه بيمنيه، وأخذ كتابه بشماله، ويحتمل أن يكون المراد بالكتب: التي بأيدي الملائكة مما يكتب فيه القدر، فإن القدر مكتوب، فالأمور المقدرة مكتوبة في اللوح المحفوظ، وهناك كتابة في صحف بأيدي الملائكة، وهذه هي التي قال الله عز وجل - فيها: **{يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيَثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}** [سورة الرعد: ٣٩] يعني: اللوح المحفوظ **{وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ}**، ويقول: "أي مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة"، وهذا الذي قاله الحافظ ابن كثير قال به جمع من المحققين، ومن قال به من المعاصرین الشيخ محمد الأمين الشنفيطي -رحمه الله-: "بالزبر" يعني: الكتب التي بأيدي الملائكة، ولا يقصدون بها التي كتبت فيها أقدار وأعمال بني آدم، وإنما المقصود ما عملاه من خير وشر مما دونته عليهم الملائكة، وهو مشار إليه قوله تبارك وتعالى -: **{يَا وَيَلْتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا}**، **{وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ}** يعني: في الماضي، ما هو ما سيعملونه في المستقبل، **{وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ}**، ومن قال: إن المقصود به اللوح المحفوظ فالقرينة هي السياق، وهو قوله تبارك وتعالى -: **{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَا بِقَدْرٍ * وَمَا أَمْرَنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلْمَحٌ بِالْبَصَرِ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ}** [سورة القمر: ٤٩-٥١]، ثم قال: **{وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطْرِ}** [سورة القمر: ٥٢-٥٣] مكتوب يحتمل أن يكون مما سيعمله العباد، ما عملاه، وما سيعملوه والواقع أن الجميع مكتوب، وكل ما سيعمله العاملون مكتوب، وما عملاه في الزمن الماضي كل ذلك مكتوب قبل أن يعملاه، وهو مكتوب إذا عملاه، كل هذا دلت عليه الأدلة، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، **{وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ}** مكتوب قبل عمله، مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة التي كتب فيها القدر، والتقدير منه ما هو أزلي، والذي في علم الله، وما كتب في اللوح المحفوظ، ومنه ما هو عمري وهو مجيء الملك إليه، كما في حديث الصادق المصدوق: ((فَيُؤْمِرُ بِأَرْبَعِ كَلْمَاتٍ...))^(٢)، ومنه ما هو حولي في السنة **{فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}** [سورة الدخان: ٤]، وكذلك الأعمال التي يعملها الإنسان تكتب،

٢- رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، باب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاؤته وسعادته، برقم (٢٦٤٣).

فالجمع بين هذه الأقوال ما عملوه وما سيعملوه كل ذلك مكتوب، وهو الذي رجحه الحافظ ابن القيم -رحمه الله.

{وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ} أي: من أعمالهم **{مُسْتَطَرٌ}** أي: مجموع عليهم، ومسطر في صحفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وقد روى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: **(إِنَّا عَائِشَةَ، إِيَّاكَ وَمُحْقَرَاتَ الذُّنُوبِ، إِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا)**^(٣)، رواه النسائي وابن ماجه.

وقوله: **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ}** [سورة القمر: ٤٥] أي: بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسرور والسحب في النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقرير والتهديد.

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ} النهر والنهر واحد على المشهور، وهما لغتان فيه: نهر ونهر، والنهر واحد يمكن أن يراد به معنى الجمع، فإن المفرد قد يطلق ويراد به الجمع **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ}** أي وأنهار.

وقوله: **{فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ}** أي: في دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه.

{فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ} يقال: دار الكرامة، ولا يبعد من هذا قول من قال: مجلس حق **{لَا لَغُوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ}** [سورة الطور: ٢٣]، فإن هذه من جملة دار الكرامة المجلس الذي لا يعصي الله -عز وجل- فيه، ولا يسمع فيه لغو ولا تأثيراً، لا يسمع فيه ما يؤثم كالغيبة التي في مجالس الناس، ولا يحصل منه إثم في هذا المجلس، ولا يتوجه إليه إثم، لا يؤثم بما يقول، وإنما في غاية الطهارة والنزاهة، فهو مجلس حق، والمقصود به الجنة، بهذه العبارات ترجع إلى معنى واحد **{فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ}** أي: الجنة مقعد الصدق هذا من أوصافه أنه دار الكرامة، وأنه مقعد حق لا تأثير فيه، ولا لغو، كما قال الله -عز وجل-: **{لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغُوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِنَّ قِيلًا سَلَاماً سَلَاماً}** [سورة الواقعة: ٢٥-٢٦] وكل ما يمكن أن يوصف به المقعد الحسن داخل في هذا، أوصاف المقعد من الحسن كلها داخلة فيه، ولحظة **{مَقْعَدٍ صِدْقٍ}** في كلام العرب يراد بها الكمال والجمال، فيدخل فيه الكمال الحسي والكمال المعنوي، وهو جنة فهي دار الكرامة.

{عِنْدَ مَلِيكٍ مُقتَدِرٍ} أي: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدارها، وهو مقدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون؛ وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو -يبلغ به النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **((الْمَقْسُطُونُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكُلَّتَا يَدِيهِ يَمِينًا * يَعْدُلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَوْا))**^(٤)، وأخرجه مسلم والنسائي.

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقتَدِرٍ} [سورة القمر: ٤٥-٤٦] وهو الجنة، قوله هنا: **((الْمَقْسُطُونُ عِنْدَ اللَّهِ عَلَىٰ مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ وَكُلَّتَا يَدِيهِ يَمِينًا))** من أهل العلم من حمله على

٣- رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٥١٧٧)، وقال محققوه: حديث حسن، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، برقم (٤٢٤٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٧٣١).

٤- رواه أحمد في المسند، برقم (٦٤٩٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيفين، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائز والتحث على الرفق بالرعاية والنهي عن إدخال المشرقة عليهم، برقم (١٨٢٧)، والنسائي، كتاب آداب القضاة، باب فضل الحاكم العادل في حكمه، برقم (٥٣٧٩).

ظاهره، ومنهم من قال: إن المراد بذلك الكمال وليس المقصود تأويل الصفة، فالصفة صفة اليد - تثبت كما يليق بجلال الله وعظمته، لكن يقصدون هل يقال: إن الله شمalaً أو لا؟ فبعضهم يقول: الرواية التي في صحيح مسلم في طي السموات وقبض الأرض، وذكر الشمال يقال: إنها شادة، وإنما المقصود بالحديث الآخر: ((كلتا يديه يمين))، أنها ليست كالشمال عندبني آدم فإنها أقصى من اليمين، ناقصة حساً ومعنى، وأما الله سبحانه وتعالى - فلا يتطرق إليه نقص، فكلتا يديه يمين بهذا الاعتبار، فمن أهل العلم من ثبت الحديثين وفسر ((كلتا يديه يمين)) بهذا التفسير، ومنهم من قال: لا يقال: إن الله شمalaً، والرواية التي في مسلم شادة.